التأنيث والتذكير والشرط النسائي*

سعيد بنگراد

مر أعرابي بامرأة تقرأ فقال: الأفعى تزداد سما.

تعود مقولتا التذكير والتأنيث اللتان تعتمدهما اللغة إلى العمليات الموجهة إلى الفصل بين الذكر والأنثى في الكائنات والأشياء والظواهر. وذلك بغاية مواكبة حضور النوع في النحو والوظائف، وفي الحياة الاجتماعية أيضا. فكائنات المحيط وأشياؤه تحضر في الذاكرة من خلال فاصل يُدرَك في اللغة، قبل أن يُحيل على خصائص فسيولوجية هي ما يحدد وجودها الفعلي.

لذلك لا يتعلق الأمر بنوع نحوي خالص يتعلم الناس من خلاله قواعد المطابقة، ويتعلمون كيف يميزون بين الرجل والمرأة، بل هو عندهم مدخل أساس نحو استعادة عالم يُبنى في الرمز عبر ما يفصل الذكر عن الأنثى عند الكائنات الحية وفي أشياء الطبيعة ومظاهرها وأبعادها. فالتذكير والتأنيث يتحققان في اللغة في المقام الأول، فللأشياء والكائنات "فرْج"(1) في الكلمات لا في وجودها المادي دائما، تماما كما تتوزع القِطع في كل الآلات على ذكر وأنثى. لذلك كان " أول الفصاحة معرفة التأنيث والتذكير في الأسماء والأفعال والنعت قياسا وحكايةً "(2).

إن الذكورة والأنوثة خاصيتان بيولوجيتان، وهما بذلك أصل التلاقح والتناسل والتكاثر. إنهما جزء من وظيفة في الجسد سابقة على التمدن والتحضر، ولكنهما يُحددان

أيضا موقعا داخل نظام رمزي يُذكر ويؤنث استنادا إلى سند لغوي يتميز بتقطيع خاص للمدرك الخارجي، لا يراعي في الكثير من الحالات حقيقة الجنس في ما يتم تقطيعه. وهذا مصدر اختلاف اللغات في الكشف عن الجنس والعدد وتسمية أشياء الكون وظواهره. إن اللغة، على خلاف الحس المحايد، لا تُخْلص دائما للعالم الذي تقوم بتمثيله. إنها تُصنف كائنات العالم وفق إكراهات ثقافية تختلف باختلاف معتقدات الناس وتصوراتهم للحياة والموت. وذاك هو الفاصل المركزي بين الحس في الطبيعة وبين التمثيل الرمزي في الثقافة.

لذلك لم يَعْدم الإنسان وسائل للتعبير عن حاجاته وانفعالاته؛ فقد كانت منافذ الحس عنده كافية لتوجيه العين إلى ما توده النفس وتشتهيه، أو ما تشمئز منه وتستهجنه. فقد قاده "حسه" إلى تطويع أشياء الطبيعة وترويض كائناتها، وإلى الحفر في أديم الأرض والنبش على جدران الكهوف بحثا عن معاش أو مداراةً لقلق لم يكن يعرف مصدره. فعل ذلك بغريزة البقاء في غالب الأحيان، أو تعبيرا عن "وعي" لم يكن ليكشف عن نفسه إلا من خلال الحس وحده (فالصرخة ليست صوتا خاما، إنها تعبير عن الألم والغضب والاستغاثة والدهشة والفرحة الخ). لم يكن الإنسان يعرف إلا ما يمكن أن يستثيره في هذا الحس محيطٌ صامتٌ. يُقال إن الانفعالات المعقدة والمركبة أو تلك التي تستعصي على التحديد والضبط هي التي أنْطقت الناس، فهي أصل اللغات.

لذلك كان الحس أعمى. إنه حالة تواصلية لا تُراكم خبرة ولا تُجَرِّد ولا تفصل الرائي عن المرئي، إن الأشياء فيه حاضرة في الوجدان باعتبار ماهيتها المادية لا باعتبار ما يمكن أن يحل محلها. إنه لصيق بالحاجة العابرة، أو هو النافذة التي تُطل على العالم خارج كل الوسائط. فهذه يقوم بها نظام رمزي مضاف يكتفي من العالم بمجموعة من المفاهيم تقوم مقامه، إنها ما يُمَكِّن الإنسان من الانفصال عن لحظة الحس لكي يحرر الزمن من سرمدية

خرساء ويؤنثه بما يمكن أن يصبح دالا على حضوره في الطبيعة وانفصاله عنها في الوقت ذاته. فالزمن ناطق في ممارسات الإنسان وسلوكه لا في الطبيعة.

وهذه صيغة أخرى للقول، إن اللغة لا تستجيب فقط لحالات المعيش النفعي في حياة الناس،" فعندما تعلم الإنسان كيف يُسمي الأشياء ويصفها ويصنفها ويفصل بينها، وتلك كانت لحظة مركزية في حياته، تعلم أيضا كيف ينتزع الكلمة من معناها الأصلي لكي تصبح وعاء لمضاف دلالي يستمد مضمونه من الاستعارات وكل الاستعمالات المجازية. وكان ذاك ديْدنه مع الأشياء والكائنات والظواهر أيضا، فقد أودع محيطه جزءا من انفعالاته، ما يشير إلى أحلامه ورغباته وإحباطاته"(3). فالثعلب في الثقافة ذكي والحمار فيها غبي، والأسد شهم والغزالة جميلة، وللمَهَا عيون تجلب الهوى من حيث يدري المرء أو لا يدري، والمرأة دجاجة تبيض وتنقنق، والسماء غطاءُ أنثى، والقمر ذكر يرعى العاشقين، إنهم جميعا كذلك ضدا على حقيقتهم في الغابة والبراري وفي الفضاءات اللامتناهية. وذاك هو الفاصل الحقيقي بين لحظة عابرة في الطبيعة، وبين تاريخ يُبْنى في الذاكرة الإنسانية وحدها.

وللتذكير والتأنيث ضمن هذا النظام موقع خاص. فلم تعد هذه الثنائية موجهة للتعبير عن حاجة أملاها النوع النحوي في اللغة فقط، بل تحولت إلى مستودع لقيم وأحكام وتقديرات خاصة بموقع النساء والرجال داخل المجتمع. فهي الأساس الذي يقوم عليه توزيع الأدوار والمهن والوظائف والأحاسيس، ونصيب الذكر والأنثى من الإرث والشهادة؛ ومن خلالها أيضا يُفْصَل بين القوي والضعيف والسلبي والإيجابي والإيلاجي والاستيعابي. بل إن اللغة ذاتها انشطرت وأصبحت مستودعا لكلمات تتداولها النساء،

وأخرى خاصة بالرجال وحدهم. يتعلق الأمر في جميع الحالات بما يضمن للكائنات والأشياء موقعها ضمن التبادل الاجتماعي.

وهذا ما تؤكده بعض مداخل القواميس العربية. فالمذكر والمؤنث موسومان في العربية منذ البداية، فهما لا يعينان في الأصل ذكرا وأنثى يشيران إلى خاصية بيولوجية تقتضي تكاملا بين رجل وامرأة، بل يحيلان، كما جاء في لسان العرب مثلا، على سلسلة من القيم تنتشر في اتجاه الضعف واللين والسلبية في الأنوثة، وفي اتجاه القوة والشدة والصلابة في الذكورة. بل إن العربية لا تتحرج في وصف الرجل بالرجِيل، أي القوي الشجاع والصلب، وتصف المرأة بالأنِيثة، أي الضعيفة والسلبية، وسيكون الأنيث من الرجال، تبعا لذلك، مخنثا قريبا من عالم النساء (مادة ذكر وأنث في لسان العرب).

وهذا معناه أن التمييز بين التذكير والتأنيث في كل العوالم التي يستثيرها التمييز بين ذكر وأنثى في الجنس، وبين أشياء وظواهر لا يمكن أن توجد في الذاكرة إلا مذكرة أو مؤنثة، هو البوابة الاستعارية نحو توسيع مجالات حالات الجنْسنَة هاته لكي تشمل العالم كله. لقد انفصلت عوالمهما عن حقيقة الجنس ليبنيا حقيقتهما الجديدة في الرمز. لقد أصبحا مستودعا لسلسلة من التمثلات الاجتماعية، يعود بعضها إلى معتقدات دينية وأسطورية موغلة في القدم، ويعود بعضها الآخر إلى طبيعة التبادلات الاجتماعية وموقع الرجل والمرأة داخلها. إن الأمر يتعلق باستعارات جنسية منتشرة في كل شيء، إنها في القفل والمفتاح وفي الخيط والإبرة والقطار والمحطة. هناك رابط في كل الأزواج بين فاعل ومنفعل، فلا قيمة للإبرة دون خيط، ولا جدوى من القفل دون مفتاح، والمحطة موجودة لاستقبال القطار.

وهذا ما دفع بعض نحاة الفرنسية، داموريت وبيشون على وجه الخصوص، إلى الاعتقاد أن كائنات العالم وأشياءه لا يجب أن توزع بين حي وجامد، فهذا التوزيع ناقص، فهو لا يأخذ بعين الاعتبار كل المضافات الثقافية والتمثلات الرمزية التي أفرزتها الممارسة الإنسانية، بل يجب تصنيفها ضمن المذكر والمؤنث. فكل ما يأتيه فعل من خارجه وكل ما يشير إلى الخصوبة والعطاء يصنف ضمن المؤنث بالضرورة، على عكس المذكر، فهو الفاعل والمندفع، وهو المحرك الذي يحرك نفسه؛ لذلك كان " المذكر أخف من المؤنث، لأن التذكير قبل التأنيث"(4)، إنه "رد فرع إلى أصل"(5). وذاك هو الحال في الفرنسية أيضا، فكلمة homo ، التي تنحدر من اللاتينية، دالة فيها على الإنسان والرجل في الوقت ذاته، فالمرأة مقصية من قصة الخلق أو لاحقة بها.

إن ثنائية المذكر والمؤنث، على هذا الأساس، ممتدة في كل شيء. فهي التي تتحكم في تصنيف الظواهر والأبعاد والأشياء الموصوفة في اللغة. فهذه الكيانات مذكرة ومؤنثة في الاسم والصفة والفعل الذي يصدر عنها، تماما كما هي الكواكب والنجوم وكل الآلات، فهذه الكيانات لا يستقيم وجودها إلا من خلال أنوثتها أو ذكورتها. وبعبارة أخرى، لا يمكن لهذه الكيانات أن تحضر في الذاكرة وفي التمثلات الثقافية، الفردية والجماعية، إلا ضمن تصنيف جنسي مسبق. وهي ليست كذلك في اللغة وحدها، إنها بهذه الصفة أو تلك في التمثلات التي يحملها الناس للمذكر والمؤنث في المقام الأول. فـــ"الدلال" النسوي مودع في سلوك الكثير من الظواهر، وزهو الطاووس مستمد من سلوك رجل مغرور. إن الرجل "ينتصب" واقفا، أما المرأة فتصاب "بالبلل". إن الانتصاب تباشير للفعل والاقتحام، أما البلل فدلالة على الاسترخاء والاستقبال، وقد يكون دلالة على الخوف أيضا.

فلا فَرْج للأرض، إنها مادة صامتة، ولكنها تحضر مع ذلك، في تصورنا، مؤنثة تملك من دلال المرأة وغنجها وعطائها وخصوبتها الشيء الكثير. إنها مؤنثة في الثقافة، أي في الجوهر الرمزي، لا في تبعيتها لمذكر محتمل، كما يحدث في الصفات الإنسانية. ولن تتحول أبدا إلى جامد صامت أو إلى مذكر فاعل، في لغتنا على الأقل. ففي هذه الحالة ستنهار كل الصور التي بنيناها عن الأرض، فهي أمنا الأولى، الطين الذي منه جئنا وإليه نعود، وهي العطاء والبطن والرحم والتراب الذي يغذي كل شيء. يقال في التقليد المسيحي إن مريم أرض لم تُسق، ولكنها مع ذلك جادت بالثمار.

والحاصل أن الكلمات هي المؤنثة أو المذكرة لا الأشياء الموضوعة للتمثيل الرمزي. وهذا معناه أن عناصر الطبيعة تحضر في التمثلات الرمزية ضعيفة سلبية أو دونية، وتحضر أيضا قوية حاسمة صلبة وإيجابية محاكاة لـــ"ضعف" المرأة و"قوة" الرجل في الحالتين معا. إن الله ذاته، الذي خلق الإنسان على صورته، لا يمكن أن يكون في ذاكرة الناس ووعيهم، عند النساء والرجال، إلا مذكرا بالضمير النحوي أولا، وبالصفات المذكرة ثانيا (أسماء الله الحسنى)، واستنادا إلى العوالم الثقافية التي يستثيرها في نفوس المؤمنين والمؤمنات ثالثا، فلا أحد من هؤلاء جميعا يقبل أن يكون خالقه امرأة. لذلك قد لا يكون تذكيره سوى موقف من المرأة ذاتها، فالذي "ليس كمثله شيء" ينفي عن نفسه التذكير والتأنيث في الوقت ذاته.

فاستنادا إلى هذا الفاصل المركزي بين الذكورة والأنوثة عند النساء والرجال وبين تمثلاتهما في الثقافة والعلاقات الاجتماعية، بنى الكائن البشري عوالم أخرى كانت حاصل عمليات جنْسنَة تُذكر الكون أو تُؤنثه، وفق موقع الرجل والمرأة ووظيفة كل منهما داخل المجتمع. لقد كانت هذه الجنْسنَة تلبية لتمثلات رمزية لا علاقة لها بالتذكير والتأنيث

الحقيقيين. وهذا النظام ثابت في اللغة والثقافة والمعتقدات، وأي مساس بهذا النظام سيقود إلى تهاوي الكثير مما جاءنا من الدين ومن التربية المباشرة ومما تعلمناه من الحكايات والأساطير (قد لا تستقيم ترجمة أسطورة من لغة إلى أخرى فقط لأن حالات التذكير والتأنيث مختلفة بين لغة المصدر ولغة الهدف).

ولا حاجة للتفصيل في الاستعارة الصينية التي توزع عوالم الأنوثة والذكورة على مبدأين مركزيين في توزيع القيم وتبادلهما." فاليين yin هو المنحدر الظليل، في حين يشكل اليانغ yang المنحدر الشامس. إن اليين هو الرطوبة والبرودة والشتاء والانتظار الغامض والطاقات الكامنة، كما يشكل السلبية والانفعال والأنوثة. أما اليانغ فهو الجفاف والحرارة والصيف والرغبة المنتصبة والطاقات الهادرة والإيجابية والنشاط والفحولة"(6). هناك تقابل بين قوتين لا يمكن للكون أن يستقيم بدونهما. هناك الأنثى، التي تنتظر المسافر والغائب، وهناك الذكر المحارب والفلاح الذي يحرث الأرض ويزرعها بذورا.

وليس هذا بالأمر العابر في حياتنا، إننا نرث التذكير والتأنيث في اللغة، ونتعلم كيف نفضل الذكر على الأنثى في المجتمع استنادا إلى قواعد لغوية نتعلمها منذ الصغر. فقد يعاقب التلميذ ويسقط في امتحانه إن هو أنَّث المحراث، فهذا مذكر "يشق" الأرض المؤنثة و"يخصبها" لتعطي ثمارا. فتلك قوة اللغة وذاك جبروتها، إن حقائقها لا تُبنى انطلاقا من تقدير موضوعي لأشياء الكون وكائناته، بل تُستمد من مواقف اجتماعية لا تكترث في الكثير من الحالات لحقائق الوجود الفعلية.

ويمتد الأمر إلى صفات المرأة وعلاقتها بالكائنات المروضة والبرية أيضا." فقد أسقط العربي الكثير من الصفات التي كان يستجيدها على المرأة، فالمرأة غصودة (سمينة) كالناقة، وهي قيدود مقدودة مثلها، وقرطاس بيضاء القامة وسنيعة وعندلة ضخمة الثديين" (7)،

كالناقة أيضا. والحاصل أن كمال المرأة وفتنتها وعطاءها كلها صفات تتحقق حسب درجة تطابقها مع الناقة، في الحليب والقديد والصبر. وهي أيضا غزال وريم وظبي، وهي في العصور الحديثة، عندنا في المغرب على الأقل، "قطة"، أي تتمتع بكمال في الحسن والجمال والرشاقة، إن لها فائضا في الأنوثة يغطي على كل وجودها في القيم والأخلاق. أما ذكورة الرجل فتتمثل في فحولته وشجاعته وبأسه. إن كلمة "عزْبة" في الدارجة المغربية تعني بالضرورة فتاة عذراء، أما العازب أي "العزْري" من الرجال فهو الحر المتحرر من قيود الزواج أو الذي لم يتزوج بعد. يكون السجل الأول في جميع الحالات حِسيا يبحث في تفاصيل الأعضاء عن جمالها أو سلامتها، أما في الثاني فيلتقط وضعا مدنيا يشير إلى حالة الرجل داخل المجتمع.

وهكذا قد تكون الجنسانية متجذرة في السوسيوس(8)، فالقيم تتغذى بالحاضن الاجتماعي الذي تتحرك داخله، ولكن اللغة هي السند الذي يمنحها شكل وجودها في الثقافة؛ فمن خلالها يستبطن الناس ما يعرفونه عن النوع وعما يميز الذكر عن الأنثى. فقواعد اللغة ليست غلافا عارضا في الوقائع الإبلاغية؛ إنها، على العكس من ذلك، الوسيلة الوحيدة التي من خلالها يتخذ العالم شكلا في أذهان الناس، أي ما يفصل بين المذكر والمؤنث والصغير والكبير والطويل والقصير. لسنا دائما أسرى الجنس، بل نحن أسرى النوع النحوي في المقام الأول، فهو الذي يُملي علينا تصوراتنا للأشياء والكائنات. تماما كما لا نستطيع التصرف في بيوغرافيات الشخصيات التخييلية، فحقائقها تُبنى خارج زمنية الوقائع التاريخية.

وقد كان رولان بارث يصف اللغة بالفاشية، لأنها في تصوره لا تمنعه من القول بل تجبره عليه(9). بل ذهبت به الحماسة إلى حد التصريح أنها ترغمه على التمييز بين المذكر

والمؤنث. والحال أن فاشيتها، إن كانت ثابتة في الإجبار على القول، فإنها ليست كذلك في التمييز بين ذكر وأنثى. فالتقابل بين المذكر والمؤنث في الحياة ليس إقصائيا، إنه تكاملي، فالذكر ليس مميزا من خلال ذكورته، بل من خلال اختلافه مع الأنثى التي تجعل وجوده أمرا ممكنا. تكمن الفاشية إذن في قدرة المذكر داخلها على استيعاب المؤنث وحمل الكلام على التذكير، كلما كان هناك جمع بين آلاف النساء وصبي صغير ذكر.

ومع ذلك، فإن الذاكرة الإنسانية احتفظت بالكثير من الأمثلة المضادة. تلك التي تحدثنا عن مراحل في تاريخ البشرية كانت فيها المرأة هي السيدة والحاكمة، وكان النظام الاجتماعي أميسيا ينتسب الأبناء فيه إلى أمهاتهم، وكانت النساء عرافات وحكيمات ومقاتلات. ولم يكن غريبا، ضمن هذا الوضع، أن يكون الله، عند الكائنات الأولى أو تلك التي يُقال إنها هي أول من دشن الفعل الحضاري الإنساني، أنثى، أمَّا أولى، أمَّا كبرى أعطت الإنسان كل شيء بدون حساب. لقد كان هناك في المحيط ما يجعل الأنثى التي تحيض وتلد وترعى الوليد دليلا على أن من خلق هذا الكون لا يمكن أن يكون سوى أنثى. لقد كانت عشتار(10)، وهي الأم الكبرى، إلها مؤنثا يستمد ألوهيته من محاكاة المرأة لإيقاع الأرض. إن المرأة وجه مؤنسن لإله يخلق ويرزق.

وحالة الأمازونيات معروفة أيضا؛ إنها أسطورة بالتأكيد، ولكنها تُعد شاهدا رمزيا على آخر المعارك التي خاضتها المرأة دفاعا عن موقعها ضمن تبادل اجتماعي جعل منها، لفترة طويلة، سيدة البيت والمجتمع. لقد كانت تجربتها في الجنس والتناسل مختلفة عن تجربة الرجل. فما يُعد لحظة عابرة عند الذكر يشكل عند الأنثى خبرة عاطفية وذاتية، ستظل تحمل آثارها في جسدها. لذلك كانت الأمومة تجربة حياتية وعاطفية؛ فالأم ليست مجبرة على إثبات أمومتها، فهي الأم بدون منازع بحكم الطبيعة، كما أنها لا تبحث عن معين في

نسلها، فهي بالولادة تزدوج؛ أما الأبوة فمن طبيعة حقوقية، إنها في حاجة إلى إثبات. إن الرجل يبحث عن سند في أبنائه.

ومع ذلك، فإن المساواة بين الرجال والنساء لا تقتضي تغييرا في قواعد نحوية أو قواعد لها علاقة بمنطق المطابقة فقط، إنها تفرض على الناس تغيير تصوراتهم عن الحياة والموت والمرأة والرجل. وهذا يقتضي أيضا الوعي بحقيقة اللغة وحمولتها الرمزية، فما يبنى داخلها ليس انعكاسا لحقيقة موضوعية لا يمكن التصرف فيها ، بل هو تمثلات سابقة لعب فيها موقع الرجال والنساء في التبادل الاجتماعي الدور الرئيس.

---

*-جزء من المقدمة التي وضعناها لترجمة كتاب: الكلمات والنساء: مارينا ياغيلو، المركز الثقافي للكتاب 2021.

1-يقال في العربية فرج المرأة وفرج الرجل.

2-أبو حاتم سهيل بن محمد السجستاني : المذكر والمؤنث، تحقيق عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت ص 35.

3-انظر كتابنا : "العربية ورهانات التدريج"، منشورات علامات، 2020 ، ص 20.

4-أبو حاتم سهيل بن محمد السجستاني : المذكر والمؤنث، تحقيق عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت ص 37

5-ابن جني : الخصائص، الجزء الثاني ، دار الكتاب العربي، ص415.

6- Alain Peyrefitte ; Quand la chine s'éveillera , le monde tremblera, éd Fayard 1980,948 ذكره بيير غيرو Sémiologie de la sexualité, p. 168

7-خليل عبد الكريم : العرب والمرأة، حفرية في الإسطير المخيم، الانتشار العربي، سينا للنشر، بيروت 1998 ، ص 39 -40.

8--socius العنصر الاجتماعي في السلوك الفردي.

9--انظر كتابه Roland Barthes ; Leçon, éd Seuil ,1978,p.14

10-انظر : فراس السواح : لغز عشتار، الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دار علاء الدين ، سوريا.